

# إن في التاريخ عبراً

## حادثة التتار

أحمد بن صالح بن إبراهيم الطويان

دار طويق للنشر والتوزيع

الموقع الرسمي للشيخ أحمد الطويان

[www.attwayan.com](http://www.attwayan.com)

## المقدمة

هذه صفحة من صفحات تاريخ أمتنا، تكشف لنا بوضوح وجلاء حقيقة لا تقبل المراء ولا يتطرق إليها الشك .. ألا وهي أن الله أعزنا بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله وما أشبه الليلة بالبارحة، فها قد تكالب علينا الأعداء وتنادوا عازمين على استئصالنا، ونحن ويا للعجب ما بين مشرق ومغرب، وما بين خائف ومرجف، وما بين مجاهد وقاعد، جربنا كل الحلول التي جادت بها العقول وأعرضنا عن مصدر الهدى والعزة الذي لا خلاص ولا نصر إلا به .. فهل من معتبر!؟

المؤلف

## عبر التاريخ

التاريخ مليء بالحوادث والوقائع التي فيها العبر والدروس فلقد تعرضت أمة الإسلام لهجمات كثيرة أثرت فيها أشد الأثر حتى ظن بعض المسلمين ألا تقوم للإسلام بعد ذلك قائمة ووصل المسلمون إلى حالة يرثى لها من الخوف والهلع والاستسلام.

وهذه الأحداث أحداث جسام يشيب من هولها الولدان، وسنعرض في هذه الصفحات أحداث هجوم التتر على بلاد الإسلام قال ابن الأثير رحمه الله في تاريخه: لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظماً لها كارها لذكرها فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك فيا ليت أمتي لم تلدني ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً فنقول هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقت الأيام والليالي عن مثلها عمت

الخلائق وخصت المسلمين فلو قال قائل إن العالم منذ خلق الله تعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً فإن التواريخ لم تتضمن ما يقار بها ولا ما يدانيها.

فهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة فإننا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها وعم ضررها وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الرياح فإن قوماً خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان ثم البلدان التي بعدها إلى بلاد ما وراء النهر حتى وصلوا العراق، فاستولوا عليها في أسرع زمان لم يلبثوا إلا بمقدار مسيرهم لا غير. ولم يبت أحد من المسلمين من أهل البلاد التي لم يطرقوها إلا وهو خائف يتوقعهم ويتربص وصولهم ولقد بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم من هؤلاء التتر قبحهم الله أقبلوا من الشرق ففعلوا الأفاعيل التي يستعظمها كل من سمع بها، فإننا لله

وإننا إليه راجعون نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين نصراً من عنده فإن الناصر والمعين والذاب عن الإسلام معدوم، ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾<sup>(١)</sup>.

وهؤلاء التتر إنما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع فخرجوا في سنة سبع عشرة وستمئة إلى تركستان وما وراء النهر فأظهروا في الأرض الفساد، فأحرقوا الديار وسبوا النساء والأطفال وهتكوا الأعراض وأراقوا الدماء وأهانوا المساجد والمصاحف.

(قال ابن الأثير - رحمه الله - وبحق من سمى نفسه صبوراً حليماً وإلا كان خسف بهم الأرض عند فعل ذلك). وكثر البكاء والعويل وهرب الناس في الطريق وأصبحت البلاد الإسلامية حاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس وارتكبوا من الشنائع العظيم والناس ينظرون ويبيكون ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئاً مما نزل بهم يرون هتك الأعراض فمنهم من اختار الموت على أن يرى ما

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

يرى فقاتلهم حتى قتل، وقتل العلماء، وأحرقت المدارس والمساجد والمصاحف والكتب ومن استسلم أخذ أسيراً ليكون درعاً بشرياً أمامهم يقاتلون إخوانهم المسلمين كرهاً

وغدروا بكل من أعطوه الأمان من المسلمين فبعدما استلموا سلاحهم أعملوا السيف في رقابهم وافتضوا الأبيكار وعذبوا الناس أشد العذاب وطلبوا الأموال وقتلوا من لم يصلح للسبي من النساء، وأهل الإسلام قد ملئوا منهم رعباً وخوفاً وهلعاً. فاستسلمت أمامهم المدن والقرى والحصون وأعمل في أهلها السيف فنهبوا البلاد.

قال ابن الأثير: وبلغني أن امرأة من التتر دخلت داراً وقتلت جماعة من أهلها وهم يظنونها رجلاً فوضعت السلاح وإذا هي امرأة فقتلها رجل أخذته أسيراً، وسمعت من بعض أهل مراغة أن رجلاً من التتر دخل درباً فيه مئة رجل فما زال يقتلهم واحداً واحداً حتى أفناهم ولم يمد أحد يده إليه بسوء ووضعت الذلة على الناس فلا

يدفعون عن نفوسهم قليلاً ولا كثيراً نعوذ بالله من الخذلان.

وذكر ابن الأثير دخولهم بلاد مرو من خراسان وأنهم دخلوها لما طلب أهلها الأمان منهم، فأمر جنكيز خان أن يخرج أهل البلد كلهم فلم يبق فيه أحد وجلس على كرسي ذهب وأمر أن يحضروا تلك الأجناد الذين قبضت عليهم فأحضروا وضربت رقابهم صبراً والناس ينظرون إليهم ويبكون وأما العامة فإنهم قسموا الرجال والنساء والأطفال فكان يوماً مشهوداً من كثرة الصراخ والبكاء والعيول وأخذوا أرباب الأموال فضربوهم وعذبوهم طلباً للمال فربما مات أحدهم من شدة الضرب وفي اليوم الرابع أمر بقتل أهل البلد كافة وأمر بإحصاء القتلى فكانوا نحواً من سبعمائة ألف قتيل فإننا لله وإنا إليه راجعون مما جرى على المسلمين ذلك اليوم.

ومضوا في الأرض مفسدين حتى وصلوا إلى غزنة وبلاد الغور وكان بها جلال الدين بن خوارزم شاه وقد اجتمع عنده من جيوش المسلمين فالتقوا مع التتر فاقتتلوا قتالاً شديداً ثلاثة أيام ثم أنزل الله

نصره على المسلمين فانهزم التتر وقتلهم المسلمون وانهزم التتار إلى ملكهم ثم التقى المسلمون مع جنكيز خان فانهزم التتار مرة ثانية وغنم المسلمون ما معهم واستنقذوا من أيديهم أسرى المسلمين إلا أن الفتنة بين المسلمين وقعت لأجل الغنيمة واقتتلوا وتنازعوا، فضعف المسلمون وعلم التتار بذلك، فسار جلال الدين بمن معه من المسلمين إلى ماء السند في بلاد الهند فالتقى مع جنكيز خان فقتل خلق كثير إلا أن القتل في الكفار أكثر والجراح أعظم فرجع الكفار عنهم فلما رأى المسلمون أنه لا مدد لهم طلبوا السفن وعبروا النهر ليقضي الله أمراً كان مفعولاً فلما كان الغد عاد الكفار إلى غزنة وقد قويت نفوسهم بعبور المسلمين إلى جهة الهند وبعدهم. فلما وصلوا إليها ملكوها لوقتها لخلوها من العساكر فقتلوا أهلها ونهبوا الأموال وسبوا الحرير ولم يبق أحد. وخربوها وأحرقوها وفعلوا بسوادها كذلك فأصبحت تلك البلاد خالية من الأنيس خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس.

وسار التتر في كل مكان يقتلون ويأسرون فمرة يقوى أمرهم ويعلو ومرة يخبو ويضعف إلى أن تتابع ملكهم إلى يد هولاءكو.

#### دخول التتار بغداد

ففي سنة ست وخمسين وستمائة قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله (استهلت هذه السنة وجنود التتار قد نازلت بغداد على مقدمة عساكر سلطان التتار هولاءكو خان. وقد سترت بغداد ونصبت فيها المجانيق والعرادات وغيرها من آلات الممانعة التي لا ترد من قدر الله سبحانه وتعالى شيئاً كما ورد في الأثر (لن يغني حذر عن قدر) وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ<sup>(٢)</sup> وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة

(١) سورة نوح، الآية: ٤.  
(٢) سورة الرعد، الآية: ١١.

تضحكه جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة فانزعج الخليفة من ذلك وفرع فرعاً شديداً وأمر بزيادة الاحتراز وكثرت الستائر على دار الخلافة، وكان قدوم هولاء كو بجنوده كلها وكانوا نحو مائتي ألف مقاتل إلى بغداد في ثاني عشر المحرم وهو شديد الغضب على الخليفة، فوصل بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر فأحاطوا ببغداد وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة لا يبلغون عشرة آلاف فارس وهم بقية الجيش الذين أعفاهم الوزير ابن العلقمي الرافضي ليضعف الجيش وليدبر المكيدة وهذا الأمر الفظيع الذي لم يؤرخ أبشع منه.

فكان أول من برز إلى التتار هو الوزير ابن العلقمي معه أهله وأصحابه وخدمه وحشمه فاجتمع بهولاء كو لعنه الله ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة. فخرج الخليفة ومعه القضاة والفقهاء ورؤوس الأمراء في سبعمائة رجل فلما

اقتربوا من هولاءكو حجبوا عن الخليفة سبعة عشر نفساً وأنزل  
الباقون عن مراكبهم ونهبوا وقتلوا عن آخرهم.

وأحضر الخليفة عند هولاءكو فسأله عن أشياء كثيرة اضطرب  
كلام الخليفة لما رأى من هول الإهانة والجبروت فرجع الخليفة إلى  
بغداد ومعه ابن العلقمي ونصير الدين الطوسي وكلهم من الرافضة  
المنافقين وكانوا قد أشاروا على هولاءكو ألا يصالح الخليفة فأحضروا  
من دار الخلافة شيئاً كثيراً من الذهب والحلي والمصاغ والجواهر  
والأشياء النفسية وحسنوا لهولاءكو قتل الخليفة فلما عاد الخليفة إلى  
هولاءكو أمر بقتله وتهيب قتله فهون عليه الوزير ذلك فقتلوه رفساً  
وهو في جوالق لثلا يقع على الأرض شيء من دمه وقيل خنق. وقيل  
بل أغرق والله أعلم فباؤوا بإثمه وإثم من كان معه من سادات  
العلماء والقضاة والأكابر والرؤساء والأمراء وأولي الحل والعقد  
ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء  
والولدان والمشايخ والكهول والشباب ودخل كثير منهم الآبار

وأماكن الحشوش وأماكن الوسخ وكمنوا أياماً لا يظهرون.  
وكانوا يجتمعون ويغلقون عليهم الأبواب فيفتحها التتار فيهربون  
منهم إلى أعالي الأمكنة والسطوح فيقتلونهم حتى تجري الميازيب  
دماءً فإننا لله وإنا إليه راجعون وكذلك المساجد والجوامع ولم ينج  
منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إلى دار  
ابن العلقمي الرافضي وبعض التجار.

قال ابن كثير: (وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها  
كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس وهم في خوف وجوع  
وذلة وقلة).

وقيل إن عدة القتلى بلغت ألفي ألف نفس أي مليوني شخص.  
وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يوماً وكان العلماء يذبحونهم  
وأولادهم كما تذبح الشياه ويأسرون من يختارون من البنات  
والجوارى. قال ابن كثير: (وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن  
وتعطلت المساجد والجمعات والجماعات مدة شهور في بغداد وأراد

الوزير ابن العلقمي قبحه الله ولعنه أن يعطل المساجد والمدارس ويستمر بالمشاهد ومحال الرفض وأن يبني للرافضة مدرسة هائلة ينشرون علمهم بها فلم يقدره الله على ذلك بل أزال الله نعمته عنه وقصف عمره بعد شهر يسيرة ورد الله كيده في نحره وأذله الله بعد العزة وأتبعه بولده، ولما انقضى الأمر المقدر وانقضى الأربعون يوماً بقيت بغداد خاوية على عروشها، ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس والقتلى في الطرقات كأنها التلول وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء، حتى سرى في الهواء إلى بلاد الشام فمات خلق كثير فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما نودي في بغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم وقد أنكر بعضهم بعضاً فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه وأخذهم الوباء

فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلَى واجتمعوا تحت الثرى بأمر الذي يعلم السر وأخفى الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ورحل هولاءكو منها في جمادى الأولى من سنة ست وخمسين وستمائة وخلف أميراً عليها واستهلت سنة ثمان وخمسين وستمائة وليس للناس خليفة وسار هولاءكو حتى وصل إلى حلب في صفر فحاصرها في سبعة أيام وفتحها بالأمان ثم غدروا بأهلها وقتلوا منهم خلقاً كثيراً لا يعلمهم إلا الله ونهبوا الأموال وسبوا النساء والأطفال وجرى عليهم قريب مما جرى على أهل بغداد.

فجاسوا خلال الديار وجعلوا أعزة أهلها أذلة ولما فتحت حلب أرسل صاحب حماة بمفاتيحها له وسار بعد ذلك إلى دمشق في آخر صفر فأخذوها سريعاً من غير ممانعة ولا مدافعة بل تلقاهم كبارها بالرحب والسعة وكتب لهم الأمان وهم على وجل من الغدر وامتنعت القلعة حتى هدمها وقتل من فيها ووضع فيها أميراً منهم قال ابن كثير وكان لعنه الله معظماً لدين النصارى فاجتمع بهم وزار

كنائسهم فصارت لهم دولة وصوله بسببه وأهدى طائفة منهم إلى هولاء كو هدايا وتنادوا بشعارهم (طهر الدين الصحيح دين المسيح) ويذمون دين الإسلام وأهله ومعهم أواني الخمر يرشون بها المساجد ووجوه الناس وثيابهم.

نصر الله في عين جالوت:

إن تلك الفتنة العظيمة والمصيبة الكبرى التي أصابت أمة الإسلام على يد التتار وقد دخلوا بلاد الشام وسعوا في خرابها وتقتيل أهلها وفعلوا فيها كما فعلوا ببغداد والمسلمون في هلع وخوف.

وقد عزموا على مواصلة الزحف على مصر فبلغ المظفر قطز ما فعلوا بالشام وأنهم وصلوا إلى غزة وعزموا الدخول على مصر فبادرهم قبل أن يبادروه فبرز لهم وأقدم عليهم قبل أن يقدموا عليه فخرج في عساكره وقد اجتمعت الكلمة عليه حتى انتهى إلى الشام واستيقظ له عسكر التتار فاجتمعوا في عين جالوت في يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان فاقتتلوا قتالاً عظيماً فكانت النصره

ولله الحمد للإسلام وأهله فهزمتهم المسلمون هزيمة هائلة وقتل قائدهم واتبعهم جيش الإسلام يقتلونهم في كل موضع إلى أن وصلوا خلفهم إلى حلب وهرب من بدمشق منهم يوم الأحد السابع والعشرين من رمضان فتبعهم المسلمون في دمشق يقتلون فيهم ويفكون الأسارى من أيديهم وجاءت بذلك البشارة والله الحمد على نصره وتأييده وفرح المؤمنون بنصر الله فرحاً شديداً وأيد الله الإسلام وأهله تأييداً عظيماً وكبت الله النصارى واليهود والمنافقين وظهر دين الله وهم كارهون ودخل المظفر قطز دمشق ففرح الناس به فرحاً شديداً ودعوا له دعاء كثيراً واسترد حلب من هولاءكو وعاد الحق إلى نصابه. وأرسل هولاءكو ليستعيد الشام فحيل بينهم وبين ما يشتهون فرجعوا خائبين، فوجدوا الدولة قد تغيرت والسواعد قد شمرت وعناية الله بالشام وأهله قد حصلت ورحمته بهم قد نزلت.

فعند ذلك نكصت شياطينهم على أعقابهم وكروا راجعين

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وفي سنة تسع وخمسين  
وستمئة حاصر هولاء حلباً فلم يستطع دخولها.

وفي سنة ست وستين حاصر الموصل ونصب عليها المجانيق ونادوا  
بالأمان فدخلوها حتى اطمأن الناس فقتلواهم تسعة أيام وقتلوا  
ملكهم وخربوا أسوار البلد وتركوها بلا شعب ثم كروا راجعين  
قبحهم الله، وفي سنة أربع وسبعين وستمئة نزل التتار البيرة في  
ثلاثين ألف مقاتل ونصبوا عليها ثلاثة وعشرين منجنيقاً فخرج أهل  
البيرة في الليل فكبوا عسكر التتار وأحرقوا المنجنيق ونهبوا شيئاً كثيراً  
ثم رجعوا إلى بيوتهم سالمين فأقام الجيش بعدها تسعة أيام ثم انصرف  
ورجعوا بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال  
وكان الله قوياً عزيزاً.

ولما بلغ السلطان الظاهر نزول التتار سار بجيش عظيم وركب  
إليهم سريعاً ولما كان في أثناء الطريق بلغه رحيل التتار فعاد إلى  
دمشق وفي سنة خمس وسبعين وستمئة التقت جيوش التتار بجيوش

الملك السلطان الظاهر بيبرس فهزمهم وكانوا أكثر من أحد عشر ألف مقاتل وقاتل المسلمون قتالاً شديداً وصبر المسلمون صبراً عظيماً فأنزل الله نصره على المسلمين وأحاطت جنود الرحمن بالنتار من كل جانب حتى قتلوا منهم خلقاً عظيماً وتسمى تلك الوقعة وقعة البلستين.

ودخلت سنة ثمان وسبعين وستمئة فاختلف التتار فيما بينهم واقتتلوا فقتل منهم خلق كثير وفي أواخر ربيع الآخر سنة تسع وسبعين وستمئة جاءت التتار إلى بلاد الإسلام بجيوش عظيمة بقيادة ابن هولوكو ونزلوا الأعراب في جمادى الآخرة.

وكاتب السلطان المنصور مصر يستدعي الجيوش وخرج السلطان المنصور من دمشق وخطبت الخطباء والأئمة في الجوامع والمساجد في الصلوات وغيرها وانتهى السلطان إلى حمص وتكاملت الجيوش في صحبة الملك المنصور وهم عازمون على لقاء العدو لا محالة مخلصين في ذلك واجتمع الناس بعد خروج الملك في جامع دمشق

ووضعوا المصحف العثماني بين أيديهم وجعلوا يبتهلون إلى الله تعالى في نصره الإسلام وأهله على الأعداء وأقبلت التتار حتى وصلوا حماة وأحرقوا بستان الملك وقصره والمساكن فأقبلوا في مئة ألف أو يزيدون فينا لله وإنا إليه راجعون.

فلما كان يوم الخميس الرابع عشر من رجب التقى الجمعان وتواجه الخصمان عند طلوع الشمس وعسكر التتر في مئة ألف فارس وعسكر المسلمون على النصف فاقتتلوا قتالاً عظيماً لم ير مثله من أعصار متطاولة فاستظهر التتار أول النهار وكسروا ميسرة الجيش وانهمزم كثير من المسلمين والتتار في آثارهم حتى وصلوا حمص وهي مغلقة فقتلوا خلقاً من العامة.

وثبت السلطان ثباتاً عظيماً جداً في جماعة قليلة، وتراجع القادة والأمراء عن الهزيمة لما رأوا ثبات السلطان وحملوا على التتار كل من جهة حتى تمت الهزيمة والله الحمد على التتار وقتل منهم مقتلة عظيمة وهربوا من كل جانب وتم النصر وكان انهمزمهم قبل الغروب

فتبعهم المسلمون وقتلوهم. وجاءت البشائر بالنصر إلى دمشق يوم الجمعة في الخامس عشر من رجب فدقت البشائر وزينت ودخل السلطان إلى دمشق في الثاني والعشرين من رجب وبين يديه الأسارى بأيديهم الرماح وعليها رؤوس القتلى وكان يوماً مشهوداً. والتتر انهزموا في أسوأ حال يتخطفون من كل جانب ويقتلون من كل فج حتى وصلوا إلى الفرات فغرق أكثرهم ونزل إليهم أهل البيرة فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأسروا آخرين والجيش في آثارهم يطردونهم عن البلاد أراح الله منهم الناس.

#### جهود شيخ الإسلام

وفي سنة تسع وتسعين وستمائة. تواترت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام فخاف الناس من ذلك خوفاً شديداً وخرج السلطان من مصر قاصداً الشام. وامتألت دمشق من النازحين عن بلادهم وخرج السلطان من دمشق في السابع عشر من ربيع الأول وخرج المتطوعون وأخذ الناس في الدعاء وتضرعوا واستغاثوا وابتهلوا.

والتقى السلطان بالتتار يوم الأربعاء في السابع والعشرين من ربيع الأول فكسر المسلمون وولى السلطان هارباً وقتل جماعة من الأمراء والجنود.

فولى المسلمون لا يلوي أحد على أحد وأهل دمشق في خوف شديد على أنفسهم فاجتمع أعيان البلد وشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - واتفقوا على المسير إلى قازان لتلقيه وأخذ الأمان منه لأهل دمشق فتوجهوا يوم الإثنين الثالث من ربيع الآخر واجتمعوا به وكلمه شيخ الإسلام كلاماً قوياً شديداً فيه مصلحة عظيمة عاد نفعها على المسلمين ولله الحمد.

وقرب الجيش من دمشق وكثر العبث في ظاهر البلد وغلت الأسعار وأرجف الناس. وكتب شيخ الإسلام إلى نائب القلعة يقول له لو لم يبق فيها إلا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك إن استطعت وكان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام وخرج شيخ الإسلام في جماعة من أصحابه إلى ملك التتر وعاد بعد يومين ولم يتفق اجتماعه

به واشتهر في البلد أن التتر يريدون دخول دمشق فانزعج الناس وخافوا خوفاً شديداً وأرادوا الخروج منها والهرب على وجوههم وأين الفرار ولات حين مناص وشرع التتار في عمل مجانيق ليروا بها القلعة.

وفي يوم الجمعة الرابع عشر من ربيع الآخر خطب لقازان على منبر دمشق بحضور التتار بالمقصورة. ودخلوا البلد وعاثوا فيها فساداً والناس خائفون وكانت الطرقات لا يرى فيها أحد إلا القليل والجامع لا يصلي فيه أحد إلا اليسير ويوم الجمعة لا يتكامل فيه الصف الأول. وأهل البلد قد أذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون فإننا لله وإنا إليه راجعون.

وصودرت الأموال وفرضت العقوبات وفتحت الخمارات ومواضع الزنا من الحانات وغيرها وخرج شيخ الإسلام إلى مخيم ملك التتار فاجتمع به لفكك أسرى المسلمين فاستنقذ كثيراً منهم.

وجاءت الأخبار بقدم الجيوش الإسلامية من مصر فرحل التتار

وتركوا دمشق وقد أزاح الله عز وجل شرهم عن العباد والبلاد.  
 وفي يوم الجمعة السابع عشر من رجب أعيدت الخطبة بدمشق  
 لصاحب مصر. وفي بكرة ذلك اليوم خرج شيخ الإسلام وأصحابه  
 على الخمارات والحانات فكسروا آنية الخمر وشققوا الظروف  
 وأراقوا الخمر وعزروا جماعة من أهل الحانات. ودخلت جيوش  
 الإسلام دمشق، ففرح الناس لذلك.

ودخلت سنة سبعمائة وفي صفر منها وردت الأخبار بقصد التتر  
 بلاد الشام وأنهم عازمون على دخول مصر فانزعج الناس لذلك  
 وازداد ضعفهم ضعفاً وهرب الناس عن بلادهم وجلس شيخ  
 الإسلام في ثاني صفر في الجامع وحرّض الناس على القتال وساق  
 لهم الآيات والأحاديث الواردة في ذلك ونهى عن الإسراع في الفرار  
 ورغب الناس في إنفاق الأموال في الذب عن المسلمين وبلادهم  
 وأموالهم وأوجب جهاد التتار وتابع المجالس في ذلك.

ونودي في البلد ألا يسافر أحد إلا برسوم. فتوقف الناس عن

السفر وسكن جأشهم وتحدث الناس بخروج السلطان من القاهرة بالعساكر.

وفي أول ربيع الأول جاء الخبر بوصولهم إلى البيرة وقت الخطيب ابن جماعة في الصلوات كلها واتبعه أئمة المساجد وأشاع المرجفون أن التتار وصلوا إلى حلب وأن قائدها قد تفهقر إلى حماة. وجاء الخبر أن السلطان رجع إلى مصر فكثرت الخوف واشتد الحال وكثرت الأمطار جداً وخرج كثير من الناس خفافاً وثقالاً بأهلهم وأولادهم. واستهل جمادى الأولى والناس في خوف شديد وتأخر السلطان واقترب العدو وخرج شيخ الإسلام إلى نائب الشام مع جيوشه فثبتهم وقوى جأشهم وطيب قلوبهم ووعدهم بالنصر والظفر على الأعداء وبات عند العسكر وأشير على شيخ الإسلام أن يخرج إلى السلطان يستحثه على الخروج فخرج إليه ولم يدركه إلا وقد دخل القاهرة فاستحثه على الخروج وقال له إن كنتم أعرضتم عن الشام أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه ويستغله في زمن

الأمن ولم يزل به حتى جردت العساكر إلى الشام وقال لهم إن قدر أنكم لستم حكام الشام واستنصركم أهله وجب عليكم النصر. فخرجت العساكر إلى الشام ووصلت ففرح الناس فرحاً شديداً. ورجع شيخ الإسلام، ثم جاءت الأخبار بأن ملك التتار قد خاض الفرات راجعاً عامه ذلك لضعف جيشه وقلّة عددهم فطابت النفوس لذلك وسكن الناس وعادوا إلى منازلهم فرحين آمنين مستبشرين.

وفي شهر رجب من عام اثنين وسبعمائة توالى الأخبار بعزم التتار على دخول بلاد الشام فانزعج الناس مرة أخرى واشتد خوفهم وقت الخطيب في الصلوات كلها وخرج السلطان من مصر لملاقاة التتار. فقدم الجيش الإسلامي إلى الشام فقويت القلوب واطمأن كثير من الناس. ووصل التتار إلى حمص فعاثوا فيها فساداً وقلق الناس قلقاً عظيماً، واجتمع العساكر وتأخر السلطان عن الوصول إلى الشام فاجتمع شيخ الإسلام بالجيوش وحلف للأمرء

والناس فقال لهم إنكم في هذه الكرة منصورون فيقول له الأمراء قل إن شاء الله فيقول إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً.

وتكلم بعض الناس أن التتار يظهرون الإسلام فكيف نقاتلهم فقال شيخ الإسلام إنهم من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي - رضي الله عنه.

وقال إذا رأيتموني في ذلك الجانب وعلى رأسي المصحف فاقتلوني فتشجع الناس في قتال التتار وقويت قلوبهم ونياتهم.

وخرجت الجيوش في الرابع والعشرين من شعبان لملاقاة التتار، وخرج شيخ الإسلام ليشهد القتال بنفسه ومن معه والناس في خوف وهلع وألح الناس في الدعاء والابتهاال في الصلوات وفي كل حال. ووصل السلطان واجتمع بالجيوش ودخل شهر رمضان وسكنت قلوب الناس وصليت التراويح واستبشر الناس. وأصبح الناس يوم الجمعة وهم في هم شديد وخوف أكيد لأنهم لا يعلمون ما خبر الناس وأصبح الناس يوم السبت على ما كانوا عليه من

الخوف وضيق الأمر وابتهلوا بالدعاء إلى الله، وجاء الخبر أن الجيش التقى بالنتار فادعوا الله وأصبح الناس يتحدثون بكسر التتار وجاءت رؤوس التتار إلى الشام. وجاءت الأخبار بالنصر وأن السيف يعمل في رقاب التتار ليلاً ونهاراً وأنهم هربوا وفروا واعتصموا بالجبال والتلال واستبشر الناس بالفتح العظيم والنصر المبارك.

وفي يوم الإثنين الرابع من شهر رمضان دخل شيخ الإسلام البلد ومعه أصحابه من الجهاد ففرح الناس به ودعوا له وهنئوه بما يسر الله على يديه من الخير وكان رحمه الله من أسباب النصر على التتار فكان يحث السلطان على القتال وبشره بالنصر وحلف له بذلك وأفقت بالفطر مدة القتال وأفطر مع الناس.

وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده ليعلمهم أن إفطارهم أقوى في القتال. فرحم الله شيخ الإسلام رحمة واسعة.



